

المدخل الاجتماعي للإعلام العربى - (١)
دراسة فى أشكاليات التوصل الفكرى من خلال الاعلام المرئى والمسموع

دكتورة/ نعمة أحمد البطريق
كلية الاعلام - جامعة القاهرة

مقدمة :

تجتاز النظرية العامة للاتصال الجماهيرى مرحلة هامة وحاسمة من مراحل النمو والتطور ، فرضتها ظروف المجتمع الانسانى ، فأصبح الفصل بين علم الاتصال الجماهيرى والنظرية الاجتماعية من الأمور الصعبة بل المستعجلة فى المجالات البحثية التى تخص أكثر المجالات اتصالاً بالمجتمع وتعاملاً مع الحياة والأنماط الاجتماعية المتعددة . ويمكن إرجاع أهمية العناية بالمدخل الاجتماعى للإعلام المسمى المرئى فى الدول العربية إلى عوامل عديدة لحصرها فى النقاط الآتية :

(أ) إن دراسة هذه الجوانب من الناحية النظرية والعملية أحد المجالات التى يطرقها الفكر الاعلامى ويعبر هذا الاهتمام عن أحد الاتجاهات فى علم الاتصال وهو معرفة أسباب اللاتوازن الاعلامى والثقافى وخاصة الوقوف على المعوقات التى تعترض العملية الاعلامية والثقافية والابداعية من خلال الاعلام المرئى المسموع خاصة بعد هذه الثورة الهائلة فى مجال اتصالات الفضاء التى أتاحت للتقنيات المرئية ازدهاراً وانتشاراً قد يفوق قنوات البث المسموع هذا من ناحية ومن ناحية أخرى دخول المجتمع العربى عصر تكنولوجيا المعلومات والاتصال بكل أبعاده وثقله فى الوقت الذى تزايدت فيه وتعاظمت المشكلات

الاجتماعية والاقتصادية والغزو الثقافي والفكرى الاجنبى وازدياد التبعية السياسية للدول المصدرة للتكنولوجيا وما يترتب عليه من تعميق الازمات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والسياسية بين اطار العالم العربى من جانب وبين تلك الاقطاع ودول العالم المتقدم الصناعى من جانب آخر ولا يتسع الوقت هنا لشرح تلك الازمات ومظاهرها ونتائجها البعيدة والغريبة على مستقبل السياسات الاعلامية العربية . وما يهمنا اوضحه هنا خطورة عملية نقل التكنولوجيا الحديثة للاعلام والاتصال الى بيئة لم تتوافر بها بعد المعوقات الرئيسية لاقامة مجتمع عربى اعلامى حديث .

(٢) إن الثورة التكنولوجية الهائلة فى مجالات الاتصال والاعلام وتدفق المعلومات وما صاحب هذه الثورة العلمية من تطوير فى الآلات الالكترونية الأمر الذى أدى الى منافسة الاعلام المرنى المسموع عن طريق التلفزيون والفيديو كاسيت النظم الاعلامية الأخرى خاصة الخطية . هذا الوضع يزداد خطورة إذا علمنا أن هناك ظواهر اجتماعية أخرى معاكسة لاقامة بنية اعلامية فعالة عربية اهمها تفشى الأمية والبطالة بأنواعها الظاهرة والمقنعة والتضخم السكاني فى المدن والاختلال الطبقي والثقالى ... فرض هذا الوضع العديد من المشكلات الاجتماعية والثقافية والإعلامية التى يجب دراستها بمنظور اجتماعى .

(٣) أصبحت البحوث والدراسات العلمية تؤكد على ضرورة الربط بين علم الاتصال والنظرية الاجتماعية وذلك لإمكان تحديد المشكلات التى تواجه الاعلام الصمعى المرنى . لقد أصبح المدخل الاجتماعى للأعلام والاتصال الجماهيرى خاصة فى مجال الوسائل المسموعة المرئية يضم العديد من وجهات النظر التى قد تصل الى كثير من الاحيان الى مستوى النظريات العلمية والتى تبلور جميعها أهمية الصورة المتحركة كشكل من أشكال الإبداع الفكرى والفنى الأكثر تعاملًا مع الفئات المختلفة من الجماهير إلا أنه لا يحقق هذا التعامل الأدوار الوظيفية المتعددة من تأثير وأقناع وإرشاد وتوجيه وتعليم . هذا القصور يمكن إرجاعه الى أغلب الأحيان الى طبيعة المجتمع الذى تتعامل معه الصورة المتحركة ، وقد يكون من المناسب إذا حصرت المقومات الرئيسية للمجتمع

الاعلامى حتى يمكن إيضاح ما قد يعترض الاعلام السسمى المرنى فى الدول العربية من عوائق وسلبات .

(٤) إن الصورة بصفة عامة كوسيلة للأبداع الفنى وكأساس منهجى للغة الصورة المتحركة لم تتناولها البحوث الاعلامية العربية بالتحليل والدراسة العلمية لبيان مقوماتها الاحتجاجية والفكرية . فالصورة كشكل من أشكال الإبداع الفكرى والثقافى والفنى ، نظرها على الأمل فى فترات الظلام الثقافى قبل عصر النهضة العربية الحديثة لى بداية القرن التاسع عشر على أنها شكل من الأشكال الفنية المحرمة التى لا يجب التعامل معها ، ومع النهضة الثقافية والاجتماعية ، قام رواد الفكر العربى الحديث بتقديم العديد من الحجج والقرائن ، اباحت دخول هذا الشكل الفنى الحياة الثقافية والفكرية مع بدايات القرن العشرين مستندين فى ذلك الى قواعد وتعاليم الشريعة الإسلامية^(١) . ولكن دخول الصورة المتحركة كمفردة من مفردات لغة المرميات لم يتناولها الفكر الاعلامى العربى بالدراسة والتحليل .

تلك الملاحظات النظرية وغيرها تشير الى أهمية دراسة المدخل الاجتماعى للاعلام المرنى المسموع خاصة وإن الدول العربية تتعامل مع وسائل تكنولوجيا غربية عن يثتها الصناعية . وتحاول جاهدة اقلمة ظروفها ويثتها الفكرية حتى تتلاءم وتكتيك تلك الوسائل وهذا على عكس الدول الغربية الصناعية المتقدمة التى مرت بمراحل صناعية وحضارية ، حققت للمجتمع تطوراً فكرياً وثقافياً واجتماعياً يتناسب وحضارة الآلة بل فرضت تلك المجتمعات ثقافة متميزة قوامها

(٢) ذلك التبار كان ولید حركات التحديث الاجتماعى والثقافى والفكرى التى قادها رواد الفكر العربى الاسلامى ابتداء من رفاة رافع الطهطاوى الى جمال الدين الأنغالى والشيخ محمد عبده . وبما ينسب دخول الصورة كشكل تعبوى حديث الحياة الثقافية لى العالم العربى - انظر فتوة الشيخ محمد عبده فى جريدة - الرقائع - ١٩٨١ . حول هذا الموضوع انظر - بسمة أحمد البطريق - التداخل الاجتماعى والثقافى للمسئى المصرية . رسالة دكتوراة الدولة - كلية الآداب قسم الصحافة والاعلام الاجتماعى جامعة بروكسب بلجيكا ١٩٧٩ . رسالة غير منشورة - بالفرنسية - أنظر أيضاً حول هذا الموضوع محمد رشيد رضا - للرخ الاستاذ محمد عبده - مطبعة المنار - القاهرة ١٩٣١ أيضاً أنور عبد الملك (بالفرنسية) .

Idiologie et Renaissance National L'Egypt Editions Anthropos.
Paris, 1968.

الصورة المتحركة كمرحلة متقدمة من الابداع الفكرى والثقافى .

إن المقولة التى تؤكد على سهولة الصورة المتحركة فى التأثير وتلخيص الفكر والمعلومات هى مقولة صحيحة ولكن غير كافية لتأكيد صلاحيتها ، وذلك لأن لغة المرئيات لن تحقق القدر الكافى من التأثير على الفئات المختلفة من الجماهير إلا بتوافر شروط المرور بحضارة الكلمة المكتوبة ، وبما لاشك فيه أن النظرة الاجتماعية التى ميزت المجتمعات على أساس الشكل التكنولوجى والصناعى الناقل للفكر والمعرفة والثقافة أصاب التعبير والتحليل كما سنوضح فيما بعد .

الأطار النظرى والمنهجى

إن التحليل المنهجى لمفهوم المدخل الاجتماعى الذى تطور منذ النصف الأخير لهذا القرن لم يعد قاصراً على دراسة النظم الاعلامية بمعزل عن يئتها الاجتماعية بمقوماتها الفكرية والثقافية والفنية والاقتصادية والانربولوجية .. بل امتد هذا المنظور ليحلل جزئيات مضمون النظم الاعلامية ويفسر البعد البائى والتركيبى ، كما يدرس الخصائص العامة لفئات الجمهور المختلفة وذلك لتحديد نوع العلاقات الجدلية القائمة بين القوة الفكرية المتجهة والفئات الاجتماعية المتقبلة لهذا المضمون الفكرى .

ولقد ركزت الدراسات المنهجية التقليدية المرتبطة بمفهوم المدخل الاجتماعى للاعلام الجماهيرى على سلوكيات الفئات المختلفة للوسائل الاعلامية المتعددة . ودراسة المنافسة بين الأنظمة الاعلامية وكيفية الوصول الى الجمهور التعريض غير المتجانس لتحقيق مبدأ الانتشار الاقصى ، وتنوع خصائص الفئات المختلفة المستقبلة للأنظمة الاعلامية والثقافية ، لم تعد هذه المحاور والمدخل المنهجية ، رغم أهميتها فى التحليل ودراسة عملية الاتصال كافية لحسم قضية المنظور الحديث للمدخل الاجتماعى للاعلام ولذلك أصبح من الضرورى وضع فروض علمية جديدة لتحليل التكوين البائى للوحدات الاعلامية السمية البصرية واهضاح مدى التداخل بين النظم الإعلامية الخطية من ناحية والنظم السموعة المرئية وحصر الأهمية النسبية لمكانة الكلمة المكتوبة كمقومة من

المقومات الاساسية الداخلة في التركيب البنائي للمضمون الاعلامي لتلك الوسائل .

وإذا كانت الدول العربية تنتظر العديد من الأدوار الرظيفية من تلك الوسائل لمواجهة تحديات العصر الحديث خاصة فيما يتعلق بالتنمية الإجتماعية والثقافية ، فهناك قضية أخرى تفرض نفسها ، يجب تحليل جوانبها وهي كيفية أنجاح عملية الاتصال الجماهيري خاصة في المجتمع العربي من خلال حضارة الصورة المتحركة ، وتحديد الشروط الرئيسية الواجب توافرها في الوسط الاجتماعي المتلقى لها لتحقيق علاقات إيجابية متبادلة .

إن من المعروف أن من بين الأسس الهامة الداخلة في أنجاح عملية التواصل الفكري من خلال الانظمة الألكترونية الحديثة السمعية المرئية الناقلة للفكر توافر معال مشتركة مقبولة بين القوة الفكرية المنتجة للرسائل الاعلامية وبين القوة المتقبلة لهذه الأفكار . فقد تكون المعال المطروحة مشتركة في المحيط الاجتماعي من خلال انظمة التواصل التقليدية ولكن معالجتها بهذه الوسائل المسموعة المرئية قد تفقدها التوازن القائم مما يؤدي الى تدفق الرسالة الاعلامية في اتجاه واحد وكفقد مفهومها الحقيقي وتغمر من مسارها وهدفها النهائي .

فهناك فيصلا منهجياً بين الفكر والثقافة المكتوبة أي الرسائل الخطية والفكر والثقافة التي تتدخل التكنولوجيا الحديثة في نقلها خاصة عن طريق الصورة المتحركة . ولذلك كان من الضروري .

(٥) إعادة دراسة الفروض النظرية التي توصل اليها العلماء في المجالات الاجتماعية والانسانية المختلفة منفردة وإعادة توظيفها لمعالجة هذه القضية الهامة والملحة بعد هذه الثورة التكنولوجية والالكترونية الهائلة التي ساهمت وأدت الى زيادة الهوة بين الجمهور المتلقى بخصائصه الادراكية والتربوية والاجتماعية التقليدية الثابتة ، وبين متطلبات المجتمع الاعلامي الحديث المتطور وعلى وجه الخصوص القضايا المرتبطة بأشكاله التداخل الحضاري بين النظم الاعلامية المختلفة ، وأصبحت من القضايا الملحة للكشف عن متطلبات وخصائص تلك البيئة الاعلامية التي فرضها التقدم العلمي والصناعي لمعالجة تلك الرسائل

المركبة والتي تتدخل أكثر من حضارة في تكوينها . لقد أصبحت البحوث النظرية التي تركز على المنهج التحليل للمحتوى الفكري والاعلامى لوسائل الاعلام والثقافة خاصة النظم المسموعة المرئية من الفروع المتطورة للمدخل الاجتماعي للاتصال الجماهيري ، من حيث إبراز أهمية دراسة مضمون هذه الوسائل ليس فقط كوحدة فكرية تعكس فكر وثقافة المجتمع في مرحلة من مراحل تطوره التاريخي بل لتحديد نوع العلاقة المتداخلة والداخلية في تكوين محتواها الفكري والفني .

وبدون تفسير نظري وعلمي لهذا الجانب يصعب تحديد ابعاد محوراً من المحاور الأساسية للمشكلات التي تعترض الاعلام الأذاعي السعي المرئي في الوطن العربي .

وإذا كان موضوع الدراسة يمس مدخلا جديداً من المداخل الحديثة لعلم الاتصال الجماهيري فهناك العديد من النظريات الاجتماعية لمعالجة بعض الجوانب المنفردة لهذه القضية ، وسنحاول الارتكاز عليها والاسترشاد بها لوضع تصور شامل وأولى .

فهمتنا محددة بل وتحتصر في تقديم تفسير نظري يمس مدخلا من المداخل الاجتماعية للاعلام السعي المرئي . ولن يكون تعرضنا للنظم الخطية الا في حدود حصر أهمية الكلمة المكتوبة كمنهج من المناهج اللغوية الخطية سابقة على الاذاعة المسموعة المرئية لأبرز تأثيرها الايجابي لانجاح عملية الاتصال الجماهيري من خلال تلك النظم الاعلامية المركبة .

هذه الدراسة تثير إذاً قضايا ومحاور متعددة يمكن حصرها في ثلاثة نقاط أساسية :

أولاً : بعض الصعوبات النظرية التي اعترضت مسار هذا الاتجاه الاجتماعي للاعلام الجماهيري .

ثانياً : بزوغ الاتجاه الاجتماعي في مجال الاتصال الجماهيري .

ثالثاً: متطلبات المجتمع الاعلامي الحديث ومنهجية دراسة المدخل الاجتماعي للاعلام المرئي المسموع في الوطن العربي .

أولاً : بعض الصعوبات المنهجية التي أعرضت مسار هذا الاتجاه الاجتماعي للإعلام الجماهيري

ويمكن إيضاح هذا المدخل النظري من خلال وجهتين :

أ - أرتباط مناهج البحث في مجال العلوم الانسانية خاصة في دول العالم الصناعي بمناهج البحث الخاصة بالعلوم الطبيعية .

ويرجع الانقمار الى أسس نظرية تحكم وتفسر الخلفية الاجتماعية القادرة على توضيح نوع العلاقات المتعددة بين الأنماط الاجتماعية وحصر درجات تفاوتها ومدى قدرتها على تقبل الرسائل الثقافية والفنية الى سبب جوهري وهو غياب التفسير السوسيولوجي في البحوث والدراسات الاجتماعية خاصة بعد التطور التكنولوجي والصناعي وسيادة الآلة في الحياة الاجتماعية ، فزيادة تلك النزعة الامبريقية الوضعية وزيادة الاهتمام بتطبيق المنهج العلمي الدقيق على الظواهر الاجتماعية تفسراً ملائماً للتطبيق .

فتميم الظواهر وتطبيق أسلوب التحليل الاحصائي واختيار العينات أصبح هدفاً في حد ذاته ويرجع سيطرة هذا الاتجاه في تلك الدول الغربية وخاصة الولايات المتحدة الامريكية الى رغبة علماء الاجتماع منح العلوم الاجتماعية معايير العلم الدقيق وأدوات منهجية دقيقة وصارمة وفروض توجه البحث ، وقوانين تشبع الحاجة الى نسق نظري متجانس ومترابط . ومن نتائج هذا الاتجاه الوصفى ازدياد الانفصال شبه التام بين العلم وفروضه من جهة وبين التفسير الاجتماعي من جهة أخرى ، كل ذلك تحت ستار الدقة المنهجية وبنى فكرة النموذج الواحد الذي يمكن تطبيقه على الظواهر المماثلة مهما كان الاختلاف في البيئة الاجتماعية (٣) .

ورغم سلبيات هذه النزعة التحليلية الوضعية التي اتصفت بها الدراسات الغربية الا أننا لا ننكر أهميتها في مجالات الدراسات الاعلامية خاصة مناهج البحث التي أمدت نظريات الاتصال منطلقات عديدة ونماذج وأدوات

(٣) د. السيد محمد الحسيني : تجربتهم جديد لقضايا علم الاجتماع ، دار المعارف ، القاهرة أيضاً

أنظر د. محمد عل محمد مقدمة في البحث الاجتماعي . دار النهضة . بيروت ١٩٨٢ .

نظرية ساعدت على تفسير آليات العملية الاتصالية . ولعل نموذج العالم الأمريكي Laswell (لاسويل) من تلك النماذج الهامة التي وجهت^(١) البحوث والدراسات الى منطلقات اجتماعية متعددة فارتكازها على عناصر عملية الاتصال الجماهيري ودراسة كل عنصر على حدة فتح مجالاً علمياً واسعاً ساعد على اضافة العديد من المفاهيم والاعداد في تكوين تصورات ومنطلقات تبنتها المدارس الأوربية^(٢) .

ب سبب خاص بالندول العربية ويرتكز أساساً على نقطتين
أولاً : انشغال الباحثين والعلماء العرب بقضايا التحرر السياسي والاقتصادي ،
وثانياً صعوبة تتبع أسباب التفتت الاجتماعي والسياسي في العالم العربي .

أولاً : أدى التركيز على ربط الدراسات العربية في المجالات العلمية المختلفة للنظريات السائدة في دول العالم العربي الصناعي المتقدم ، من ناحية وانشغال الباحثين والعلماء العرب بقضايا التحرر السياسي والاقتصادي والثقافي الذي يواجهه العالم العربي . للانشغال بايجاد مفهوم موحد للتخلف الاقتصادي والسياسي ومحاولة العثور على حلول عملية للتغلب على الاشكاليات المطروحة والمفاضلة بين الأيديولوجيات ومدارس الفكر الاقتصادي من اشتراكية ورأسمالية ليبرالية بهدف رسم فلسفة للتنمية الاقتصادية .

وكان من الطبيعي أن تؤثر النظم الاعلامية وتحفظ برامجها في مثل هذه الخلفية الاقتصادية السياسية . ورغم جدية البحوث والدراسات المرتبطة بالتنمية الاجتماعية ومحاولة تحديد مفهوم التبعية الاقتصادية والسياسية والفكرية^(٣) ولم تساهم تلك التصورات في وضع نهجاً نظيقاً لتطوير البنية
(٤) حول هذه النقطة راجع د. حسان محمد رشدي - الأسس العلمية لطريات الاعلام - دار الفكر العربي / القاهرة ١٩٧٨ .

(٥) هم دراسات تلك المدرسة والتي تخص ذلك المظهر الاجتماعي ، أنظر Roger causs, les nouvelles synthèses creditiques. Editions instrut de sociologie. bruxelles 1963-
Thoverong. Radio et television dans la vie quotidienne Editions de l'Ins Socio. Bruxelles 1971.

(٦) د. نادية رمسيس « التنمية وأزمة التحول السياسي » عدد يوليو ١٩٨٥ - ٤٢ - ٦٩ أنظر : ١٢

الاساسية والهيكل الاجتماعية التي يرتكز عليها المجتمع الاعلامي الحديث ورسم سياسة شاملة لمواجهة الاعلام العربي اخطار الغزو الثقافي والفكرى عن طريق الوسائل الاعلامية المسموعة المرئية ، وتقديم مفهوم واضح ومكتمل للمدخل الاجتماعى للاعلام العربى ، كمدخل يحلل ويفسر الظواهر الاعلامية كظواهر أفرزها المجتمع وفقاً لتطور تاريخى تنصهر بداخله مقومات فكرية واجتماعية وسياسية واقتصادية محددة وأيضاً يحل التكوين النهجى والبنائى للوحدة الفكرية والكشف عن مقومات هذه اللغة الحديثة ومدى تمثيلها للانماط الاجتماعية المختلفة .

ثانياً : لعل هناك أسباب أعمق توضح نظريات حديثة تناول هذا المنظور الحديث للاعلام العربى ينطلق من واقع الظواهر والانماط الاجتماعية وعلاقتها بالفكر السياسى والثقافى وتفسيرها من واقع خلفية تاريخية تتبع مسار المجتمع وحركته وترجع هذه الاسباب جميعاً الى صعوبة تتبع أسباب التفتت الاجتماعى والسياسى فى تلك الدول وذلك للسبب المتعدد لاختصار المشكلات الاجتماعية والسياسية والثقافية وتمحيصها فى صورة لا تتناسب والواقع المرير الذى يعيشه المجتمع العربى وطبقاته المختلفة ، ونتيجة للتقنيات المتبعة من قبل الحكومات فى تلك الدول وتنوعها وفقاً للترعات السياسية وتحقيقاً لمبدأ سلطوية الدولة ، وانفرادها فى تطبيق ايدولوجية واحدة لا تمثل الوعى الفكرى والثقافى للطبقات والانماط الاجتماعية الأخرى .^(٧)

ويمكن القول بصفة عامة أن الصعوبات التى اعترضت مسار الانعماه الاجتماعى للاعلام الجماهيرى فى الوطن العربى ترجع الى أن ممارسة العمل الاعلامى العربى يتبع القرارات السياسية ويرتبط بها وهذا يعنى أن العمل = أولاً - د. عمر ابراهيم الخطيب « الجوانب الابدولوجية والسياسية والاجتماعية فى الفكر الدكتورالوجى العربى » - مجلة العلوم الاجتماعية العدد ٤ - شتاء ١٩٨٤ ص ٩ - ٢٨ . أنظر أيضاً - د. انور عبد الملك « الفكر العربى فى سكرة الهضبة - دار الادب - بيروت الطبعة الثانية - ١٩٧٧ .

(٧) د. محمد الملك عمدة - تعقيب على دراسة د. غسان البطي - « دور الجامعة العربية فى الاعلام » ندوة جامعية لنسول العربية - الواقع والصورة مركز دراسات الوحدة العربية ابريل ١٩٨٣ ص ٤١١ - ٤٤٢ .

الاعلامى ترجمة لواقع السياسة ولواقع صناعة القرار فى صورته الاجتماعية الشاملة .

وكل دولة من دول العالم يعيش تلك التناقضات والظروف ، وقد تختلف بعضها لى السمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية العامة إلا أنها تعيش جميعاً التبعة الفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية بكل أبعادها ومظاهرها . فإذا اختلفت بعض المظاهر من حيث الشكل إلا أن العوامل والاسباب التى أدت الى تلك التبعة تكمن فى أعماق المجتمع ولا تزال آثارها تحكم وتوجه بعض الانماط الاجتماعية سناً لها لتحقيق أهداف معاكسة للمصلحة العامة^(٨) .

(٨) مرجع سابق د . نادية رسيى - التنمية وأزمة التحول السياسى .

ثانياً : بزوغ الاتجاه الاجتماعي في دراسة الاتصال والاعلام الجماهيري

أصبحت البحوث النظرية التي تركز على التحليل الاجتماعي والمنهجي التركيبي والبنائي للمحتوى الفكري لوسائل الاعلام والثقافة المسموعة المرئية من الفروع المتطورة لنظرية اجتماعيات الاتصال والاعلام الجماهيري واصبح هذا النوع من الدراسات وجهة يتجه اليها العلماء والباحثين في دول العالم الصناعي في الغرب خاصة الوسائل المسموعة المرئية كفرع حديث لنظرية الاتصال الجماهيري . فالتقدم العلمي في مجال مناهج البحث قدم وسائل وأدوات لتحليل ودراسة المضمون الاعلامي لتلك الوسائل واستكشاف العلاقات اللغوية والبنائية لتحديد العلاقات المتداخلة بين الاشكال التعبيرية والثقافية المختلفة من جانب وتحديد موقف المتلقي من هذه الوحدة الفكرية والثقافية وكيفية تعامله معها من جانب آخر .

ذلك المنظور الاجتماعي الحديث مر بمراحل عديدة ، ولعل من المفيد الإشارة في هذا المجال لمودج العالم الامريكي Lasswel الذي كان له الفضل في تطوير النظريات الاجتماعية التي خصت بالتحليل والدراسة العناصر المختلفة بهذا النموذج . إلا أنه أغلب هذه الدراسات نظرت الى مضمون الرسائل الاعلامية نظرة منفصلة كل الانفصال عن المضمون الثقافي والفكري واعتبرت وسائل الاعلام الجماهيري مجرد وسيط بين منتج ومتلقي للرسالة يمكن الاستغناء عنها^(٩) .

وتبنت المدرسة الأوربية خاصة الفرنسية التيار الفكري الذي يرى ضرورة انطلاق الدراسات الاجتماعية الخاصة بالوسائل السمعية المرئية من منظور تفسيري لخصوصية النظم السمعية المرئية كنظم هيأت لظهورها وتطورها مقومات اجتماعية وفكرية واقتصادية وسياسية ومدى تأثير التابع الحضاري وما هيأه من مقومات ايجابية على التكوين المنهجي والبنائي للغة المركبة ، أي

(٩) مرجع سابق - د. جيهان رشدي - الامس العلمية لنظريات الاعلام حول نفس الموضوع انظر :

Lyman Bryson, the communication of ideas. Harper New York-

1949.

دراسة الطبيعة الاجتماعية لعلم الاجتماع أو لنظرية الاعلام الاداعى السسمى المرقى ، لاستتاج قوانين تلك الظاهرة وتحديد خصائصها وابعاد النظرية التركيبية^(١٠) .

فالدراسات التقليدية الخاصة بتحليل المضمون او المحتوى الاعلامى تناولت هذا النتاج من الناحية الكيفية والكمية ، وبالرغم من أهمية تلك الدراسات القصوى فى حصر اهتمامات المجتمع المتنوعة فى فترة زمنية محددة واستخدام هذه النتائج لتحديد الانماط المختلفة للنتاج الاعلامى وموقفه من الفكر والثقافة وتحديد الاسلوب المتبع ، الا أن هذا النوع من الدراسات لايمكن الاعتماد عليه بمفرده كعنصر وكأداة للتحليل والنقد الاجتماعى لمضمون وسائل الاعلام والاتصال الجماهيرى خاصة الاعلام السسمى المرقى وتحديد موقف الثقافة والاعلام من القضايا الهامة المرتبطة بالمجتمع وكيفية معالجة هذه الموضوعات من تلك الوسائل الاعلامية المتطورة التى فرضت طرقاً ومناهج قد لا تتقابل وتتلاقى بادرالك بعض الانماط الاجتماعية المختلفة فى المجتمع .

ان دخول هذه الوسائل الحديثة بمختلف وتعدد اشكالها وخصائصها حياة الأفراد والشعوب أصبحت تشكل ليس فقط السلوك الاجتماعى والتربوى بل تتدخل فى التكوين الفكرى والثقافى والسياسى .

وأصبحت إعادة دراسة الفروض النظرية التى توصل اليها العلماء فى مجالات العلوم الاجتماعية المختلفة ونوظيفها لمعالجة هذه القضية الهامة والكشف عن مقومات هذه اللغة الحديثة وبعض الاسس النظرية التى تركز عليها وكيفية تعاملها مع الفكر والثقافة من القضايا الهامة والملحة التى يجب اخضاعها للتحليل والبحث العلمى المتعمق .

(١٠) من المؤلف راجع :

N.Chomsky. Deepps Structures Surface and Sementic Cambridge

mas. R.Berthes L'empires des signes, Geneve skin 1970.

Le Plaisir dut exte. Paria? 1972

اختلاف المناهج الاعلامية في تناول المنظور الاجتماعى :

واختلفت المناهج الاجتماعية في الدراسة والتحليل باختلاف الخلفية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يركز عليها المجتمع في مسيرته التاريخية ولقد انطلقت الدراسات الاعلامية في الولايات المتحدة الامريكية من خلال تفسير اقتصادى وسياسى واهمل الجانب الثقافى والفكرى . واصبحت الدراسات الاعلامية تتعامل مع المضمون الاعلامى باعتباره مضمون منفصل عن المضمون الثقافى . فالمضمون الاعلامى لا يعكس بالضرورة ثقافة المجتمع لأنه يقدم الموارد الثقافية في صورة مبسطة وسطحية تفقد في كثير من الأحيان الثقافة جديتها وانعكاساتها الفكرية في الوسط الاجتماعى . ووفقاً لهذا المنظور من الدراسات الاعلامية اعتبر المضمون الاعلامى سلعة تعرض في سوق الثقافة والفكر ووفقاً لقانون العرض والطلب الذى يحدد ملامحه وخصائصه المستهلك الاعلامى^(١١) .

وكان من نتيجة هذه النظرة اهتمام الباحثين والعلماء بالمنهج العلمى المتبع في دراسة المضمون الاعلامى والتأثير . واهمل دراسة الوسيلة كظاهرة اعلامية وتكنولوجية تؤثر في المضمون ، كما أهملت المقومات التحليلية والتركيبية للغة المرئيات ، كعامل من العوامل القادرة على توضيح العلاقات المتبادلة والكشف عن العلاقات المتبادلة بين المستهلك والمنتج الاعلامى اى بين المستقبل والمضمون الثقافى والاجتماعى .

وتطورت مناهج البحث الخاصة بالتحليل المنهجى لعنصر التأثير الاعلامى لوسائل الاتصال الجماهيرى وعنصر الانتشار Audiences خاصة بعد أن قدم Lazarsfeld لازار سيفيلد منهجاً جديداً في التحليل والدراسة يؤكد فيه على دور قادة الرأى والجماعات الاساسية في الاقتناع والتأثير خاصة في مجال الدعاية السياسية والتجارية^(١٢) ورغم أهمية تلك النظرية في تطوير البحوث

(١١) O. Burgelin "Les communications de Masse dans la societe industrielle" Systemes partiels de communication.

(١٢) حول هذا الموضوع انظر مرجع سابق - د. جيهان أحمد رشدى ص ١٨٣ ص ٢٢٨ .

الاعلامية الا أنها أكدت اتجاهها سائداً وهو غياب الدراسات الخاصة بتحليل خصائص الوسيلة وقدرتها على التأثير كشكل ناقل للفكر والثقافة وكظاهرة اعلامية وثقافية واجتماعية وتكنولوجية استحدثت قدرتها في التأثير والاتقان من خلال التطور الاجتماعي والثقافي .

ضرورة الانطلاق من دراسة الوسيلة الاعلامية

فكما أشرنا من قبل أصبح ضرورة الكشف عن المقومات التركيبية والبنائية للمضمون الاعلامي وتتبع الادوار السلوكية المختلفة والكشف عن التأثير الاجتماعي لتلك الوسائل الاعلامية والثقافية من أهداف الدراسات الحديثة في الاعلام والاتصال الجماهيري .

ويختلف الاساس النظري الذي تركز عليه الدراسة في الدول النامية والدول الصناعية المتقدمة لطبيعة البيئة الاجتماعية والسياسية والوسط الذي يتحرك بداخله الحدث الاعلامي والثقافي وأيضاً لطبيعة التكوين الفكري . وقدرات الجمهور المتلقى . فلقد انطلقت في الولايات المتحدة الامريكية تلك الدراسات وكما أشرنا من قبل ، من منظور اقتصادي فوظفت فروض النظرية الاعلامية لتحليل الظواهر الاقتصادية وحصر العوامل المؤثرة في فئات الجمهور المختلفة لقياس درجة تفضيله لأنواع معينة من المحتوى الثقافي أو الفكري أو السياسي أو الترفيهي للوسيلة الاعلامية . فالعامل المسيطر والموجه لعملية الانتاج الفكري والثقافي هو مبدأ الربح المادي ، هذا الوضع يتناسب وطبيعة المجتمعات الصناعية المتقدمة التي تختلف في بنيتها الاجتماعية والسياسية الدول الآخذة في النمو . فالبيئة الاجتماعية وخاصة البيئة الاعلامية في الدول الصناعية المتقدمة محصنة لئلا هذه الحرية في الاختيار بين المواد الثقافية والاعلامية المتنوعة لان المقومات الحضارية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية المواتية قد لا تتوافر بصورة متكاملة في الدول النامية أو دول العالم الثالث بصفة عامة ، لافتقار بنيتها الاعلامية الى المقومات الاساسية لاقامة مجتمع اعلامي بصورة فعالة .

ومن هنا كانت هناك ضرورة لتدخل الدولة لتوجيه مثل هذا الانتاج

الفكرى والثقافى بدرجات متفاوتة حتى فى الديمقراطيات الحديثة فى أوروبا مثل فرنسا وإنجلترا... لحماية الأفراد من هذا الغزو الفكرى المتعدد الأنماط والذي قد لا يتقابل والمصلحة العامة للقاعدة المريضة للأفراد . فوسائل الاعلام والثقافة خاصة الاعلام الأذاعى السعى المرنى ينتظر منه العديد من الأدوار التنموية إذا ما أحسن التعامل معه ووجه الوجهة الصحيحة .

بعض الاتجاهات الحديثة فى دراسة مضمون الوسيلة الاعلامية

(أ) قدم العالم الفرنسى Edgard Morin « أوجار موران » تحليلاً نظرياً لدراسة جانب من الجوانب هذا المنظور الاجتماعى اعتبر اسهاماً واطافة جديدة فى مجالات الدراسات الاجتماعية الخاصة بوسائل الاعلام الجماهيرى . فقدم تعريفاً جديداً للثقافة الجماهيرية وثقافة الاتصال الجماهيرى على اعتبار أن الثقافة مفهوماً التقليدى الجاد ، أصبحت مادة اسامية لتفذية المضمون الاعلامى الحديث ، وانطلاقاً من هذا التعريف امكن تحديد ودراسة المضمون الاعلامى من منطلق جديد يساعد على اظهار ماقدمه التطور التكنولوجى من وسائل وامكانيات تزيد من امكانيات الوسيلة الاعلامية على نقل أهم الملامح الثقافية والاجتماعية^(١٣) .

فانطلاقاً من دراسة الظواهر الاجتماعية يمكننا الوقوف على أهم الاختلافات فى المضمون الاعلامى على أساس ما يهأه المجتمع المعين من مفومات اجتماعية وفكرية وتطور تكنولوجى .

وتتشكل ثقافة الاتصال أو الثقافة الجماهيرية فى النهاية وتحدد ملامحها وفقاً للعلاقات الجدلية بين تلك الطبقة المنتجة للفكر والطبقات المستقبلية له ، أى بين المنتج والمستهلك لتلك الوحدات الفكرية والثقافية . وعحصلة تلك العلاقات التى تطورت على مر العصور هى التى حددت مفهوم الثقافة

Morin. K Esprit du Temps. Grassil. Paris, 1968. Nouveau courants (١٣) dans L'etude des communications de masse. Rapport . UN.E.S.O 1969.

الجمهورية ان صانع الرسالة الاعلامية أو المبدع أو الفنان أو المثقف ينتج مضمونه الثقافي والاجتماعي بالوسائل والادوات الثقافية المتاحة ، ليعبر عن سياسة وفكر وملاح العصر الحديث ويفجر الأفكار الكامنة التي تراود افراد الطبقات الاجتماعية المختلفة . فالرسالة الاعلامية تجمع في اطار وحقل واحد المنتج والمستهلك ويبدو ان هذا هو الشرط الاساسي لفهم الجمهور المستقبل لها على واقع الاجتماعي والسياسي والثقافي من خلال المضمون الفكري والثقافي الذي المرزه كل من المنتج والمستهلك . ومن هنا يتفق « موران » من خلال ذلك التعريف ومقولتي « كارل ماركس » الشهيرة ان المنتج يخلق المستهلك « وجيمس جويس » المنتج هو المستهلك .

(ب) ولقد رسم ابراهام مولز اطاراً منهجياً جديداً لتعريف الوسيلة الاعلامية من منظورها الاجتماعي قد يتفق مع منهج « موران » ويتلاقى في أهمية دراسة الخصائص الاجتماعية والثقافية كنظم تمخضت وتشكلت من خلال التطور الحضاري للمجتمع ، لتحديد مفهوم الثقافة الاعلامية ، أو ثقافة الفيساء الا أن مولز يعرض الثقافة بمفهومها الواسع الشامل كمحصلة حضارية افريها المجتمع من خلال التتابع الحضاري ، وبين الثقافة الجماهيرية أو ثقافة الاتصال التي افريها التطور التكنولوجي الحديث .

ان الثقافة التقليدية وفقاً « لمولز » لا تتغير ولكن الوسيلة التكنولوجية كشكل ناقل لها هي التي تغير من تلك الثقافة ومحتواها الفكري . ولقد أضاف جديداً في هذا التحليل وهو الفرد فالفرد الاجتماعي الذي يبين في مجتمع محدد يؤثر ويضيف وحدات الى تلك الثقافة كما يتأثر بمحصلة هذه الثقافة النهائية . فالتقدم الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي والاقتصادي ينطلق دائماً من الفرد والى الفرد .

ولا يلهم من هذا التحليل الذي تقدمه ان جميع الافراد في المجتمع يعيشون الواقع الاجتماعي والثقافي بنمط واحد من الادراك ، فهناك عوامل ومقومات فكرية تميز بين درجات الادراك والقدرة الانتاجية للفكر والثقافة .

فهر يخص الطبقة المفكرة والمنتجة للثقافة والفكر باهتمام بالغ كقوة دافعة وعمركة للثقافة والحضارة .

ان الفرد المنتج كالنظام المقترح مكتسب مهارات وقدرات جديدة وفقاً لسمات الاطار الاجتماعى والسياسى والفكرى .. الذى يتحرك بداخله . ان الوسائل الاعلامية تتعامل مع هذا الاطار العام للمجتمع فهى تستمد قوتها فى التعبير عن تلك السمات المكونة للأنظمة الاجتماعية الجزئية بخصائصها المختلفة والمكونة للمجتمع ككل .. اى وفقاً لموقف النظم والمؤسسات الاجتماعية من تلك الطبقة المنتجة للثقافة .

ومن هنا يتضح لنا أهمية الفرد المنتج كعامل مؤثر فى الثقافة الحديثة أو ثقافة الاتصال « ثقافة الفيضاء » ، ويمكن قياس فاعلية وإيجابية الأدوار الوظيفية لتلك الوسائل من خلال ما يضيفه الافراد من فكر وثقافة لمحصلة الانتاج الثقافى فى المجتمع .

ووفقاً لهذا التعريف وهذا التحليل الذى يعتبر مدخلاً لعلم اجتماع معرفة على الاتصال فهو يجمع بين الطبيعة الاجتماعية والثقافية للفهم ويربطها بظروف المجتمع ومشكلاته المتعددة وبموقف نظرية الاعلام والاتصال الجماهيرى من تلك السياقات الاجتماعية والفكرية والثقافية .

فالاجتمع هو الاطار العام الذى يجمع القدرات المتعددة ويهيئ المقومات الثقافية وأدوات ووسائل التعبير عن الانماط الاجتماعية المختلفة .^(١٤)

(ج) اضاف العالم الكندى ماك لوهان ابعاداً هامة فى التحليل ودراسة ذلك المنظور الاجتماعى . فقد حصر اهتمامه فى أهمية الشكل الناقل للمحتوى والمضمون وأهمية الوسيلة التكنولوجية والالكترونية فى تشكيل الفكر والثقافة وأيضاً فى تشكيل مهارات الانسان وقدراته الادراكية . ولقد اعتمد فى تحليله على معادلة Lasswell لاسول الشهيرة ، لقد جمع العالم بالاتصال والجمهور التلقى فى اطار واحد هذا الاطار يحدد بالشكل التكنولوجى للوسيلة

(١٤) انظر ابراهيم موزر Sociodynamique de la Culture. Editions Mouton, Paris 1969.

الاعلامية - أى أن التطور التكنولوجى والصناعى الذى هياَ لظهور تلك الوسائل أن أيضاً الانسان العصرى خصائص وقدرات عديدة ساعدته على مواجهة تلك الوسائل بشكل متطور . وبالرغم من الانتقادات التى وجهت الى تلك النظرية والتعارض فى وجهات النظر فى تقييمها ، إلا أن هناك شبه اجماع على فاعليتها فى توجيه البحوث الاعلامية الى وجهة جديدة فى الدراسة وتحليل الشكل الناقل لمحتوى الفكر والثقافة .^(١٥)

إن أهمية تلك النظرية فى رأينا تنطلق من تعريف للشكل الناقل للمعرفة ، فكل شكل جديد أو أداة جديدة للمعرفة تحتوى الأشكال السابقة لها ، فالتليفزيون مثلا كشكل حديث أو (حضارة التليفزيون) أو الأعلام السمعى المرئى ، يحتوى الاشكال والحضارات السابقة له . فكيفية التعامل مع الاشكال السابقة هى التى تحدد فاعلية تعرضنا للأشكال الحديثة . فالوسيلة الحديثة امتداد للقدرات الذهنية والفكرية والادراكية التى تكونت من خلال طريقة تعاملنا مع الوسائل السابقة .

إن الحضارة السمعية المرئية أو حضارة الصورة المتحركة تحتوى على حضارات ثقافية سابقة عليها وهى حضارة الطباعة وحضارة الاذاعة أو حضارة الصورة .

(١٥) من أهم علامات المدرسة الهيكلية فى مجال التدخل الاجماعى للاتصال انظر مرجع سابق

Clauses, Roger, les nouvelles synthèses Critiques

انظر مارشال ماك لوهان La Galaxie Gutenberg éditions Mame / Seuil Paris

1972.

ثالثاً : رسم منهجية لدراسة المدخل الاجتماعي للاعلام المرئي المسموع في الوطن العربي

ينصح مما سبق أهمية المضافات الاجتماعية والحضارية كمحور من المحاور الأساسية التي قامت عليها دراسات وآراء رواد الفكر النظري للمدخل الاجتماعي والثقافي للاتصال الجماهيري بصفة عامة ان دراسة الوسائل الاعلامية التكنولوجية الحديثة ودراساتها من زاوية واحدة أي كوسيلة وشكل تكنولوجي فقط قدمه التطور العلمي والصناعي لن يثرى هذا المنظور البحث الاجتماعي والاعلامي ولن يعمل على ايضاح وتحليل العلاقات المتداخلة داخل الوحدة الفكرية التي يعكسها الاعلام المرئي المسموع .

لكن تحليل ودراسة تلك الظاهرة باعتبارها انعكاس حضاري واجتماعي وفكري ونتيجة من نتائج التحديث والتطور الثقافي والاجتماعي . هذا النوع من الدراسات المتعمقة يمكنه ايضاح واطافة العديد من العوامل السلية التي تعرقل مسار عملية الاتصال الجماهيري من خلال تلك الوسائل وحصر المشكلات والعوائق التي تعترض العمل الاعلامي كما يمكن لهذا التحليل الاجتماعي للاتصال ان يحدد الاهداف ويشير الى البدائل التي من شأنها دفع واتجاح عملية الاتصال الجماهيري من خلال الاعلام المركب .

هذا النهج الاجتماعي لدراسة الاعلام والاتصال الجماهيري لا يقتصر على حصر مقومات العملية الابداعية والثقافية ، ولكن أيضاً يحدد كيفية تعامل واستقبال الفئات الاجتماعية المختلفة لتلك النتاجات الفكرية والثقافية والفنية .

وبذلك نصل الى نقطة البدء في التحليل الاجتماعي للاعلام المرئي المسموع التي لا تقتصر فقط على حصر المقومات الاجتماعية والثقافية والحضارية والاقتصادية ولا على دراسة الجوانب اللغوية وكيفية تعامل الوسائل الاعلامية انسابقة عليها بمعطيات الفكر والمعرفة في المجتمع من حيث خصوصية لغة المربيات كنظام متميز له عناصره ومفوماته . ولكن تجمع بين المنهجية في دراسة الظاهرة الاعلامية المسموعة المرئية من أجل الوقوف على خصائص البيئة الاعلامية من حيث أهميتها في تحديد قدرة المجتمع على الممارسة الثقافية والفنية

والإبداعية من خلال تلك النظم الإعلامية المركبة من ناحية ، وعلى تحديد مقومات اللغة الإعلامية الحديثة (التي حدد وحصر إطارها رائد علم اللسانيات الحديثة في دي سوسيور) كنظام لغوي أفرز عناصره التقدم الاجتماعي والثقافي وفقاً للرموز المكتبة على طول مراحل التتابع التاريخي والحضاري^(١٦) .

وانطلاقاً مما سبق يمكن حصر تصورنا لمنهجية دراسة المدخل الاجتماعي للإعلام المرتق المسموع في الوطن العربي من خلال دعامين أساسيين :

الأولى : وحدة الظاهرة الإعلامية والاجتماعية والثقافية والحضارية وتكاملها .

الثانية : خصائص البيئة الإعلامية .

الدعامة الأولى : وحدة الظاهرة الإعلامية والاجتماعية والثقافية والحضارية واللغوية وتكاملها

وانطلاقاً مما سبق تين منطلقاتنا الخاصة المرتبطة بدراسة الظاهرة الإعلامية حيث نحصر العناصر المختلفة لتلك الظاهرة من حيث أنها وحدة اجتماعية وثقافية وحضارية ولغوية متكاملة . تلك النظرة تركز على أهمية الربط بين الجوانب الثقافية والفكرية من طرف والديناميكية السوسولوجية من طرف آخر كعملية تتفاعل في إطار تاريخي محدد . واعتبار التطور التكنولوجي والصناعي والعلمي عامل من العوامل الدافعة والمطورة للعقلية الاجتماعية القادرة على تقبل التناجات الثقافية والفكرية من ناحية ومن ناحية أخرى اعتبار هذا التطور عامل من العوامل المحددة لقدرات ومهارات الجمهور المستقبل للصورة المتحركة كمصدر ووحدة لغوية للإعلام المرتق المسموع . ان دراسة هذه العناصر مجتمعة تقدم للباحث الإعلامي أدوات تساعد على استكشاف

(١٦) انظر دي سوسيور .

-F, De Saussure. Gand de linguistique General. Paris Payout 1971.

-Foucault. M. des mots et les choses. Gallimard. Paris 1966.

كيفية تعامل الطبقات الفوقية بمعطيات الواقع الاجتماعي وتعدد درجة الابتعاد أو الاقتراب منه والكشف عن دوافع الابداع الفكري والثقافى والفنى . كما يوضح الاسباب المعاكسة لهذا الازدهار .

هذا يعنى أن دراسة المدخل الاجتماعى للاعلام المرتق المسموع تقوم على تحليل الظاهرة الاعلامية من حيث التمييز بين شكل المعرفة ومضمون المعرفة بمعنى أن دراسة تلك الظاهرة هى دراسة مزدوجة تقوم على دراسة الوسيلة ليست فقط كشكل ناقل للمعرفة بل تدرس الظاهرة من الداخل اى تحلل من خصائص مضمون الوسيلة الاعلامية تفحص نسقها الداخلى والقوانين التى تحكم فيه من لغوية وفكرية واجتماعية كما يحدد علاقة تلك الأفكار والايديولوجيات التى تنبها تلك الوسائل بالواقع الاجتماعى اى يدرس ايضا العلاقة بين عالم الفكر والمعرفة والواقع الاجتماعى الذى نبثه الطبقات الاجتماعية المختلفة . ومتى تحققت تلك الدراسة امكن السيطرة على المضمون الفكرى للوسيلة الاعلامية وأمكن الحكم على مدى صلاحيته واهليته للمشاركة فى العمل الاجتماعى والثقافى والتربوى فى المجتمع .

لقد أصبح التمييز بين الشكل والمضمون من الادوات المنهجية التى تساعد الباحث الاعلامى على حصر المقومات الاجاماعية والفكرية والتكنولوجية ، وكعوامل مماندة ومساعدة للانتاج الثقافى والفكرى . لقد اتضحت هذه الاهمية البحثية المزدوجة بعد عملية حصر للنظريات المتعددة لعلوم اللسانيات خاصة المرتبطة بنظرية الصورة المرئية . لقد أظهرت تلك النظريات ان مضمون الاعلام المرتق المسموع هو مزيج من الرموز الانسانية والتكنولوجية^(١٧) . حيث يركز الجانب الأول لهذا المنهج على دراسة القضايا الفنية المرتبطة بتطوير الوسيلة كشكل تكنولوجى يعمل فى اطار اجتماعى محدد ، له أدوات ورموزه اللغوية فى الابداع والتعبير . والجزء الثانى من هذا المزيج يقوم بدراسة اللغة من جانبها المعرفى والثقافى والفكرى ويقوم على حصر

(١٧) انظر الى هذا الصدد . د. نسمة أحمد البطريق « المفهوم الحديث للاعلام المرتق المسموع » دراسة فى نظرية الصورة المتحركة ٢٢ بحث تحت النشر - معهد الصحافة وعلوم الأخبار - تونس

العوامل الثقافية والاجتماعية والسياسية التي يمكن أن تساعد هذا المضمون كقوة معبرة عن الواقع الاجتماعي الذي تعيشه طبقات المجتمع .

ان أهمية حصر المعطيات الفكرية للمعنية الابداعية قبل معالجتها بالوسائل المركبة المرئية المسموعة ، وبعد العمليات الفنية والتكنولوجية المرتبطة بالوسيلة ذاتها تنضج من خلال حصر مقومات الابداع الفنى والثقافى من خلال حصر مقومات الابداع الفكرى والثقافى من خلال تلك الوسائل وايضاً الوقوف على أسباب الثغرات الفكرية والابداعية كما تساعد هذه النقطة الباحث والمتخصص الاعلامى كنهج لدراسة الثغرات الثقافية والاجتماعية التي تعاني منها بعض المجتمعات الناقلة للتكنولوجيا الحديثة دون المرور بمراحل التطور الاجتماعي والثقافي المصاحبة لعمليات التقدم العلمى والصناعى والاقتصادى ، من ناحية ومن ناحية أخرى الوقوف على مستويات البيانات الاعلامية من حيث تحديد أهمية وسائل الاتصال الخطية كأساس ومقومة فعالة في تحديد القدرات الادراكية والمهارية للجمهور المستقبل لتلك الوسائل الاعلامية المركبة .

تلك النظرة القائمة على وحدة الظاهرة الاعلامية والاجتماعية والثقافية والحضارية وتكاملها يقدم لنا الادوات العلمية التي نحكم مسج دراسة الوسائل الاعلامية المرئية المسموعة في الوطن العربى والتي تتركز على اعتبار الظاهرة الاعلامية .

أولاً : ظاهرة اجتماعية وجدت مسياتها ومقوماتها في سياق هذا المجتمع واستمدت كيانها من هذا الاطار الاعام للمجتمع العربى . وبمعنى اعتبار نشأة هذه الوسيلة مسحة من المسحات العامة للتطور الثقافى والفكرى في المجتمع .

ثانياً : اعتبار مضمون تلك الوسائل نتاج فكر وثقافة وتاريخ وفن مجتمع له مواصفات بعينها ، فلكل أسلوب للتعبير والمعالجة الفنية حاميات تستمد خيوطها من التطور الثقافى والاجتماعى . ان المضمون الثقافى المرئى المسموع هو مضمون غابة في التعقيد لأنه ناتج من وسيلة التعبير المباشرة والعمل مباشرة لى نفس الوقت ، حيث ان الاديوب

عندما يؤلف قصة يكتبها بأسلوب يتفق وروؤيته الادبية . تلك القصة اذا ما عولجت تليفزيونياً اى من خلال ذلك الشكل التكنولوجى المعقد فإنها تخضع لاحتياجات ومتطلبات الآلة المركبة التى تفرض على الموضوع رؤية خاصة . هذه الرؤية تخضع لعدة عوامل أهمها عامل التطور التكنولوجى . وكما أشرنا من قبل يجب النظر الى الظاهرة الاعلامية والثقافية المرئية المسموعة نظرة شاملة من حيث وحدة مقوماتها الثقافية والتكنولوجية والاجتماعية .

الدعامة الثانية : خصائص البيئة الاعلامية

ويرتكز اهتمامنا فى هذه النقطة على أهمية دراسة ملامح البيئة الاعلامية وتحديد المقومات التى تقوم عليها . ولقد أمكن من خلال عملية حصر بعض فروع علوم الاجتماع تقديم منهج لدراسة تلك البيئة . والذى يهتأ من إثارة تلك النقطة هو التأكيد على أهمية الانطلاق أولاً من دراسة المضمون الاعلامى والثقافى والفنى لتلك الوسائل بفرض استخلاص وحصر النظريات المتعددة التى تحكم لغة المراثيات . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى استخلاص المقومات اللازمة لانجاح العملية الاتصالية التى تؤهل لهذا المحتوى الدخول فى علاقة جدلية بين المصدر والمستقبل لمضمون الاعلام المرئى المسموع .

ولقد أمكن من خلال هذه المنهجية الوقوف على سليات البيئة الاعلامية بصورة أدق وأشمل .

ان هدفنا ينحصر اذا فى هذه المرحلة فى وضع اطار نظرى لدراسة لغة المراثيات وبصفة خاصة التأكيد على مفهوم الصورة المتحركة كمفردة من مفردات اللغة المرئية وكأساس ومنطلق لدراسة وتحديد البيئة الاعلامية الحديثة .

لكن ما ان يطرح موضوع اللغة على صعيد الفكر النظرى حتى تبرز وتتضح مجموعة من القضايا والاشكاليات بعضها يتعلق بالاساس البنىوى والبعض الآخر يتعرض لأشكاليات التعرض لها . فليس من مهام تلك النقطة

حصر كل ما يتعلق بمفهوم اللغة المركبة . فالاعتكالية المحورية التي يتم باثارتها هو الكشف عن بعض القضايا التي تعترض عمق الانصال الجماهيري من خلال النظم الاعلامية المراثية المسموعة والاسباب التي تعرقل ادوارها الوظيفية خاصة المرتبطة بالتنمية الاجتماعية والثقافية في دول العالم الثاني خاصة وهي تخطو مرحلة جديدة من مراحل اتصالات الفضاء . وحتى غاصر هذا الاطار المراسي الابعاد نشير الى نقطتين كأساس في دراسة هذا الجانب .

(أ) المفهوم العام للغة المراثيات أو اللغة الفيلية .

(ب) أهمية الفكر المكتوب كأساس لتحديد قدرات ومهارات المتلقي للاعلام المرئي المسموع .

إن وضع مفهوم عام للغة المراثيات يقود الى ضرورة حصر بعض نظريات علوم اللسانيات الحديثة ونظريات البناية والتركيبية ، هذا التعرض يقودنا الى مدارس الفكر النظري المرتبط بالمناهج الوضعية والتفسيرية في مجالات الأدب والشعر وفروع التعبير والابداع الثقافي والفني حتى نصل الى حصر منهجاً يقتصر على لغة المراثيات أو لغة الصورة المتحركة كمفردة ووحدة اساسية ترتكز عليها تلك اللغة الحديثة . ورغم أهمية هذا الحصر في اثناء منهج البحث إلا أن هذا المجال لا يتسع في تلك الدراسة ، ولكننا يمكن وضع مفهوم الصورة المتحركة والاشارة الى خصوصيتها وبعض التيارات الفكرية التي تعرضت لهذا المفهوم . ان بلورة هذا المفهوم ومنهجية دراسة هذه اللغة يرجع الى المدرسة الأوربية وعلى وجه التحديد المدرسة السويسرية الحديثة الخاصة بالمناهج الوصفية . ويمكن الاشارة في هذا الصدد الى أن الفضل الأول في وضع هذا الاطار المنهجي يرجع الى رائد العلوم اللغوية الحديثة « دى سوسور F.De Saussure » المرتبطة بمجالات الحركة البناية التركيبية والتي تبشها فيما بعد نظريات كل من « ليفس ستروس » « وشومسكى » « ورولاندر بارث » « وجاكوبسون » .. ويقوم هذا النهج الحديث في دراسة الأدب والنقد واللسانيات الحديثة على مبدئين :

الأول : تحليل الظاهرة اللغوية لاكتشاف اجزائها والوقوف على نوع وخصرصة العلاقات التي تحكم ذلك النسق اللغوي بهدف التوصل الى المعاني الكامنة . وذلك بمعنى ان هذا المنهج يقوم على مبدأ هام وهو تحليل الظاهرة اللغوية كنظام اجتماعي ونسق للقيم ويتبع حركة المجتمع الفكرية والثقافية والاجتماعية . ومن ثم يعتبر النظام اللغوي نتاج فكر وثقافة وتاريخ وفن يجمع له مواصفات يعينه على اعتبار ان لكل اسلوب التعبير والمعالجة الفنية حتميات تستمد خيوطها من التطور الثقافي والصناعي والسياسي .

ان تطبيق هذا المبدأ كأداة بحثية في الدراسات المرتبطة بالاعلام المرئي المسموع في الوطن العربي يساهم الى حد بعيد في ادراك العلاقات التي تربط بين التطور الاجتماعي والثقافي والحضاري من جانب ونشأة انماط حديثة من التعبير الفكري والثقافي والفني من جانب آخر . فالتطور الاجتماعي والثقافي الذي شهده الوطن العربي من بداية القرن التاسع عشر وبالرغم من عدم تعميم هذه الظاهرة الحضارية في أنحاء الوطن العربي الا أنها ساهمت بالرغم من ذلك والى حد بعيد في نشاط الحركات الفكرية والثقافية والفنية وكان لها عظيم الاثر في اثراء اللغة العربية بالفاظ جديدة تتناسب واحداث العصر الحديث وكأداة هامة للتعبير عن قضايا التحرر . أفادت هذه الحركات الفكرية والوطنية في نهضة الصحافة العربية . وتطور الاشكال المختلفة للأدب من زاوية حديثة ادت الى نشأة المسرح العربي الحديث . وهذه الرسائل المرئية المسموعة المختلفة من سينما وتلفزيون^(١٨) .

أما المبدأ الثاني الذي يقوم عليه هذا المنهج الحديث هو مبدأ الرؤية الثانية للظواهر بمعنى ان عملية التعبير الفكري والفني من خلال الصورة المتحركة هي عملية مزج بين مستويين من المفاهيم ، المستوى الأول يرتبط بالواقع المادي والمستوى الثاني وهو عملية المفهوم الحسي والتعبيرى للشيء نفسه من خلال

A. Moles h'image.

(١٨) مراجع سابقة

R.Barthes. L'empire des signes.

وضعه في العمل الفنى أو الفكرى وايضاً يتوقف المعنى التعبيرى على كيفية التعامل برموز لغة الرميات للتعبير عن ذلك الواقع المادى . على اعتبار ان الصورة هى أداة الفكرة وأداة التعبير عن هذا الواقع المادى والحسى . وان الصورة المتحركة تتعامل مع الفكر والثقافة من خلال رموز تكنولوجية مرتبطة بالوسيلة التكنولوجية نفسها ورموز أخرى تستمد قواعدها من الفكر الثقافى والمعرفى وتسمى رموز انسانية .^(١٩)

ولقد أمكن من خلال حصر نتائج نظريات علوم اللسانيات الحديثة التوصل الى اهمية الرموز الانسانية فى تحقيق التوازن اللازم بين القوزاين الداخلية للنسق الفنى للمضمون والقوانين الخارجية الخاصة بالمهارات الانسانية المتعددة التى يجب توافرها فى مستقبل ومتج ذلك النوع من الرسائل المرئية المسموعة .

كما أمكن التأكيد على أهمية التقدم العلمى التكنولوجى والاجتماعى والثقافى فى زيادة المفردات العملية والابداعية وزيادة فاعلية الصورة المتحركة فى التعبير عن الاحداث بصورة صادقة عن الواقع الحسى والمادى .

هذا يعنى ان قارئ الصورة المتحركة يقف امام مضمون فكرى وفنى يختلف مدى تأثيره عملية كرسالة مركبة فى الأفتناع على حجم وكثافة التجارب الانسانية والقدرات والمهارات المكتسبة ، وايضاً على حجم الرموز المتنوعة التى تحتوىها الصورة المتحركة وأشكالها تعامل المدع والمفكر بها للتعبير عن الظواهر الاجتماعية والفكرية المختلفة .

أهمية النظم الخطية كأساس فى تحديد قدرات ومهارات الجمهور المستقبل

ويمثل هذا العنصر أحد الجوانب الداخلة فى اطار الدراسات الاجتماعية الخاصة بدراسة جمهور الاعلام المرئى المسموع . من حيث حصر وتحليل خصائص الجمهور المستقبل للمضمون . وتحديد سلوكه تجاه الوسائل المختلفة للاتصال الجماهيرى . وي طرح هذا النوع من الدراسات عدة تساؤلات اهمها هل يمكن لهذا الجمهور التأثير على مضمون هذه الوسيلة بحيث يصبح قوة

لتطوير هذا المضمون . أم هو مجرد عامل سلبى لا يساعد على تطوير هذه الأدوات الاعلامية والثقافية الخطيرة والتي يمكنها الاسهام فى تنمية المجتمع .

لقد أثبتت الدراسات الاجتماعية بنهاجها المختلفة من ميدانية ووصفيه . فى مجال تحليل سلوكيات المتلقى وقدراته المهارية اللازمة فى مواجهة الاعلام المركب ان الفرد عند تعرضه للثقافة والاعلام المرئى المسموع يقوم بنشاط ذهنى وفكرى متعدد الابعاد . ان التعرض للغة المرئيات تفترض نوعاً من الادراك الفكرى القادر على التحليل الفورى والاجمالى اى يفترض قدرة على الانتاج والمنطقية فى الترتيب وذلك لخصوصية لغة الصورة المتحركة المرتبطة بمبدأ البنائية ، القائم على ارتباط كل جزء من اجزاء التركيب او البناء اللغوى لما يسبقه او يلحقه من أجزاء وهذا يفسر صعوبة ادراك المعنى الكلى والحقيقى للوحدة الفكرية اذا تعدد تحديد أو فهم العلاقات التى تربط كل جزء من اجزاء هذا الكيان المترابط والمتكامل^(٢٠) .

وهذا يعنى ان المعالى الفكرية يتضح معاملها من خلال عملية تتابع اللقطات . وتقتضى نظاماً من الممارسات المنطقية التى تفترض على المستقبل القيام بها اثناء تعرضه للمضمون .

والمبدأ الثانى الذى تقوم عليه لغة الصورة المتحركة هى ارتكازها على قاعدة فكرية وثقافية اساسها الكلمة المكتوبة القادرة على عملية الايضاح والتفسير وللظواهر الاجتماعية والانسانية المختلفة .

فبدون فهم مسبق للاحداث بتفاصيلها عن طريق الفكر المكتوب من خلال الصحيفة والكتاب لا يمكن فهم عمليات الابداع والتعبير من خلال الصورة المتحركة التى تقوم بالتجريد والتكثف - تجريد الكلمات الى لقطات وصفية وحسبة للواقع والاحداث ووفقاً للمستوى الثقافى والفكرى والاجتماعى لعدد من المثقفين والمفكرين الذين يقومون بتلك العمليات الفكرية والثقافية فى المجتمع .

(٢٠) د.نسة احمد البطريق . المرجع السابق - المفهوم الحديث للاعلام المرئى المسموع

تلك الخصوصيات تفترض حداً من الممارسات المنطقية لدى المستقبل الاعلامى ولا يمكن توافرها بدون التعليم ، تعليم القراءة والكتابة ، اى المرور بحضارة الفكر المكتوب الذى من شأنه تنمية القدرات والمهارات الانسانية .

ان الكلمة المكتوبة اذاً هي اساس المعرفة التكنولوجية الحديثة ، وتمثل أيضاً اساس الادراك الحسى والمنطقى وهو ما يمكن استخلاصه من دراسات علماء النفس والتربية أمثال ياجيه ، وروز ، وبوب سامبز ودافيد جاليه ... الخ . لقد أوضحت هذه الدراسات أهمية القراءة والكتابة والعمليات الحسية كأساس للمهارات والقدرات فى الترتيب المنطقى . فالفرد لا يمكنه المصاحبة الايجابية فى العملية الثقافية والاعلامية الا بعد سيطرته على تلك المهارات الثلاثة . ولا نقصد هنا ان التعليم شرطاً أساسياً للتعرض الى برامج التلفزيون المتعددة . فليس هناك ما يمنع فى الأمر للتعرض الى أكثر البرامج تعقيداً . ان القضية الاساسية التى نود ابرازها هي قدرة الفرد على اختيار النافع ورفض كل ما يضر ويتعارض مع قيم وتقاليده المجتمع . ان تلك النظرة الثاقبة لن تتحقق الا بتوافر الشروط الاجتماعية والثقافية اللازمة .

يقودنا هذا التحليل الى ادراك سلبيات البيئة الاعلامية العربية وتغلفها خاصة فيما يتعلق بنسب التعليم المنخفضة . فمن خلال الاحصائيات المختلفة التى قدمت فى أواخر السبعينات والتى تشير الى انخفاض اعداد الذين يعرفون القراءة والكتابة ، فى نصف الدول العربية الى اقل من ٢٥٪^(٢١) . هذه النسب لا تختلف كثيراً فى الثمانينات ، فلا تزال الاقطار العربية المختلفة تعاني من تلك الظاهرة الاجتماعية والتعليمية . ونحن لا نقصد بالتعليم هو مجرد الامام بأصول اللغة ومعرفة قراءتها وكتابتها انما قصدنا من التعليم كأداة لنقل الثقافة المكتوبة وواسطة لاكتشافها والاطلاع عليها .

ان مجرد معرفة الكتابة والقراءة لاتكفى الكثير الى القدرات الانسانية مالم توظف الى تنمية القدرات والانفتاح على الثقافة والمعرفة .

(٢١) نحو نظام عرب جديد للاعلام والاتصال . مشروع تقرير نهائى . المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . ص ٥٠٣٤ ، تونس ١٩٨٥

وإذا طبقنا هذه المناهج جميعاً في دراسة مفومات البيئة الإعلامية الجديدة لأدركنا الباعد والهوة العميقة التي تفصل بيننا العربية للاعلام والاتصال الجماهيري وبيئات العالم العربي الصناعي المتقدم من حيث كثافة التعليم وأدوات الثقافة والاعلام المكتوب وتعدد اشكائه وأدواته . ولعل أهم تلك الأدوات الصحيفة والكتاب والتوسع في نشر هذه الأدوات بطرق ديمقراطية وتشجيع قراءتها . ولأدعى غياب الكتاب والصحيفة العربية كية عن حياتنا الثقافية ولكن غياب الوعي الثقافي والاعلامى الذى يتمثل في ضالة نسب الاطلاع والقراءة واتخاذها عادة ومط يومى للسلوك .

أن أهمية القراءة والاطلاع وعلاقتها برفى الحياة الانسانية وتطورهاها المعقدة . ولعل أهمها تجنب الانقياد الى الوسائل الترفيهية السهلة التي تساهم الى حد كبير الى تحطيم وعديم الارادة البشرية . ان مجرد المشاهدة العابرة في عواصم ومدن الأقطار العربية المعدة بمجانِب الملاحظة الدقيقة تؤكد لنا درجة انقراض الثقافي الذى يعيشه شباب العالم العربى وهو يحاول جاهداً مك بوسائل التسلية السهلة ولعل أكثر تلك الوسائل انتشاراً نوادى الفيديو المخصصة لبيع وتأجير أفلام وشرائط قد تبث افكار من شأنها تحطيم الشخصية وعرقلة نموها^(٢٢) .

وتفوق اعداد هذه النوادى اعداد المكاتب المخصصة لبيع الكتب كما تفوق ايضاً أعداد صالات العرض السينمائي التي غالباً ما تعرض افلام سرت بين أيدي الرقابة الوطنية .

ان هدفنا من أثارة تلك الملاحظات هو التأكيد على ضرورة أهمية دراسة هذه الجوانب دراسة اجتماعية دقيقة وتحليل البيئة الاعلامية العربية تحليلًا علمياً يستد الى المناهج الاجتماعية المتعددة من ميدانية ووصفية .

ونسأل عن كيفية وضع نظرية عربية للاتصال والاعلام الجماهيري ونحن لم نحلل بعد المداخل الاجتماعية والثقافية ولم نقم بدراسات تحدد نظم

(٢٢) د. محمد النوي . ثقافة النائد الأدنى مكتبة الحانفي ط ٢ - بيروت ١٩ أنظر أيضاً د. أحمد أبو مطر ، أساليب ومناهج تدولية لدراسة الأدب العربى قضايا عربية عند يامر ص ١٤١ - ص

العلاقات الاجتماعية وتحديد سلوكيات الجمهور المستقبلية للوسائل الإعلامية المختلفة . وتحليل مضمون تلك الوسائل واستكشاف التداخل بين النظم القوية المتعددة ومقوماتها وبصفة عامة حصر المعلومات والدراسات العلمية الكافية لتحديد مقومات وعناصر البيئة الإعلامية وخاصة ونحن على مشارف اتصالات الفضاء .

لا بد من وجهة نظرنا ان يتجه علماء الاتصال والاعلام الجماهيرى العرب الى دراسة هذه النقاط والتي تشكل مقدمة ضرورية نسبى نظرية عربية نتمد فروضها من واقع بيتنا وقضايانا .